مات الملك

قصة للكاتب الاسترالي : ف . اشرتون
نقلها عن الفرنسية الدكتور سهيل ادريس

وصل « غرانت » متأخراً ذلك اليوم ، وصفق باب الصف ، مستاء من تأخره ، منسحقاً بالقيظ وبذلك النبأ الذي بلغه في الليل . وصاح بجفاف :

— وقوفاً !

فنهض الاولاد في ضجيج . كأنهم حيوانات تنقاد للسوط . وقد لاحظ غرانت ذلك ، وتساءل بمرارة كيف انتهى به الأمر الى تعليم « الالفباء » الى هذه العصبة من الزنوج الصغار والخلاسيين في مركز لتربية الحيوانات منعزل في هذا الدغل . وفكر في نفسه : «انه عمل لامستقبل له ، ومن غير ادنى أمل »

وجعل ينظر اليهم ، فغاظته بسمتهم المأنوسة ، واحتكاك اقدامهم العارية على الأرض ، واصطفاف الوجوه الثمانية الصغيرة السوداء والبيضاء والخلاسية ؛ ابناء الباطر ، وابناء الحانوتي ، و « اومي » من معسكر « النهر » و « روزا » ابنة الطباخ الإيطالي .

وقال غرانت :

— قبل ان نبدأ هذا الصباح ، عندي نبأ خطير جداً ابلغكم إياه .

ثم صمت ، فظلت الانظار معلقة فيه ، في وجهه الطويل الكئيب ، وعينيه الحسيرتين المختبئتين خلف زجاج كثيف . إن بوسع العالم ان ينهار ، فان ذلك لن يعني هؤلاء الاولاد الملونين ما دامت الشمس تلتمع ، وما دام السمك في النهر ، وما دام في الدخل ممرات توحي بالمغامرة شقتها القطعان . هذا ما فكر به غرانت وتساءل : أني لهذه الكائنات البدائية ان تتأثر لمثل هذه الخسارة الوطنية ؟ إنه ليشك بجدارتها حتى على ان تستشعر بعض الحزن . ولفظ غرانت هذه الكلمات بهدوء :

— لقد مات الملك .

وأحس بان الانفعال يخز عينيه .

— إن ملكنا الحبيب . . . قد مات . . . وهو في نومه . . . وسنلزم دقيقتين من الصمت ، ونفكر به قبل ان نبدأ الدرس .

وكان القيظ خانقاً . ولم يكن يعكر الصمت الكبير إلا نعيق الغربان . غير بعيد عن المسلخ . وكان الجفاف قد أحرق الحقول ، فأبرز منظرها في تنافر خشن من صخور بلون المغرة مقتطعة على سماء بنفسجية . ولم يكن غرانت قد نام في الليلة الماضية . فقد كانت ترتفع من « معسكر النهر » انتحابات غريبة ، وانات غير طبيعية استمرت ساعات طويلة تشقق الليل الكثيف ، حتى اللحظة التي بدأ فيها كلب حارس الحاجز ينبح القمر الاستوائي .

وكان غرانت قد تقلب طويلاً في سريره ، وهو يلعن هذه الصرخات الليلية ، ويرجو ان يجد نفسه يوماً في مكان متحضر يستطيع فيه الانسان ، اذا ما وقع فريسة الأرق ، ان يخدر حواسه بالخمر . واذ هو مستيقظ ، فانه تذكر الطالب اللامع الذي كانه في الجامعة ، وانهياره بسبب الشراب . وكان يعلم ايضاً ان نوبة جديدة من معاقرة الخمر تترصده ، كما يحدث دائماً له ، بعد بضعة أشهر من العمل . وجعل يحس في مؤخرة رأسه بألم واخز .

وارتفع صخب التلاميذ ، فضرب غرانت طاولته بيده وقال بلهجة مرة :

— لن نعود الى الدرس إلا حين تعاودكم حشمة الهدوء . ونستطيع ان ننتظر ونحن وقوف .

وكان الاولاد يعرفون العادة ، فسرعان ما شملهم السكوت . واردف غرانت :

— اعلموا ان الملك كان أبانا ، وأننا كنا كاولاده . انني اريدان تفكروا في هذا ، وان تذكروا دائماً حظكم السعيد في انكم استطعتم إن تكونوا تحت حمايته .

وصمت من جديد . وكانت الضغينة تنمو في نفسه ، كعاصفة في القيظ الميت ، امام فتور تلاميذه وخمولهم . إنه لم يشعر بان كلماته قد اتت ثمرتها ، وأحس بان صبره ينفد . وقد كان بوده لو يصيح فيهم : « لقد كان رجلاً عظيماً ! وانكم لا تقدرون الخسارة التي يخلفها موته ، ايها الاغبياء الصغار ! ولماذا اخبركم ذلك في الحقيقة ؟ انكم لن تدركوه ولو رددوه في مسامعكم طوال شهر فما عساكم ان تفهموا من الاخلاص لتاجه ؟»

*

لم يوهب غرانت فضيلة التسامح التي تضع الزيت في عجلات الحياة . إنه لم يرث إلا فكرة مبالغاً بها عن قيمة تعليمه ، مما كان يفقد هذا التعليم كل حظ من حظوظ النجاح .

وأمر منديله على عنقه وتحت ذقنه ، ثم طواه وقد بلله العرق . وكان الاولاد يراقبونه ، وقد ادهشتهم الحمية التي اوحاها اليه موت رجل بعيد كل هذا البعد ، خارج عالمهم . وقال غرانت :

— رددوا هذا القول : « لقد مات رجل عظيم . ونحن لن نجد شبيهه ابداً ! »

فرددوا العبارة بكل دقة ، وعيونهم مفتوحة من الدهش . وفجأة ، رفع غرانت يده يشير اليهم ان يصمتوا :

— لماذا لا تردد مع الآخرين ، يا « اومي » ؟

فرفع الصبي الصغير رأساً منبراً ، وحدد عينين مذعورتين بدتا كبيرتين جداً في وجه الأسمر الشاحب :

— انا احكي ، يا استاذ

— حسناً ! ارفع رأسك إذن . أعيدوا جميعاً .

وسقط رأس اومي مرة اخرى على صدره . كانت اسرته من بلدة « ارنهيم » ، وقد تعاقدت مع بعض صيادي اللؤلؤ في ارخبيلات الشمال . إن اولئك الرجال احرار . اما هو ، اومي ، فليس حراً بعد . لقد سقط في شرك البيض ، وكان ذلك اليوم ، في حزن كبير لا يقاس به موت ملك ، وكانت ذكرى محرقة تشغل ذهن هذا الصبي الذي لا يتجاوز الحادية عشرة ؛ ذكرى مأساة حدثت ليلة امس في « معسكر النهر » . وإن هذه

الذكرى لتوحي له بفيض من الود لمعلمه الذي يسحقه الألم هو ايضاً . إنه يتمنى من صميم قلبه ان يعزي الرجل . بل هوقد فكر بوسيلة للقيام بذلك، حين وجه غرانت اليه كلامه داعياً اياه الى ترديد العبارة .

وامتدت يده بعصبية الى جيبه الذي كان الشيء الوحيد الذي يروقه في هذا اللباس المدرسي المفروض . وفي هذا الجيب ، كان يكمن « أباس » ، الحرذون الصغير .

وأفاق «أباس» منتفضاً . فانقلب على نفسه وتسلل خلال الأصابع الصغيرة التي كانت تتلمسه ، حتى اذا بلغ حافة الجيب ، توقف متشبثاً بالقماش ، قاذفاً بلسانه البنفسجي . وحاول اومي بجنون ان يقبض عليه ، ولكن الحرذون أفلت منه وسقط على الطاولة محدثاً ضجة خفيفة . وتسلل على طول الحافة حتى بلغ يد « روزا » السمينة . وبعد لحظة ، كان يتسلق ذراعها ويختبىء في كمها .

وأخذت روزا تزعق ، وجعلت تهتز وتنفض ثوبها نفضاً شديداً حتى سقطت على قفاها وسقط معها المقعد الطويل . وانحنى « اومي » عليها ونجح في القبض على الحرذون .

وقد كانت هذه الضجة ، في مثل تلك اللحظة الحرجة التي اسيء اختيارها في نظر غرانت ، بمثابة النقطة التي يطفح بها الاناء .

— اخرسي يا روزا ، وانت ، يا اومي ، تعال الى هنا .

واقترب الصبي ، منفرج العينين ، ممتقعاً من الذعر . وبذل غرانت جهداً كبيراً ليتكلم بهدوء :

— ما الذي كنت تعمله ؟

— انا ... اقبض على ... الحرذون ...

وصمت . كيف يستطيع ان يعبر عن رغبته في ان يهدي هذا الحيوان الصغير الى معلمه من اجل ان يعزيه ، وكيف يعطيه إياه خفية ، لأن اباه، الملك ، قد مات ، ويلوح انه بشديد الحزن عليه . وعاد يتمتم مرة اخرى:

— انا .. اقبض على .. الحرذون .

— كنا نفكر بالملك يا اومي ، بالملك الطيب الذي فتح لك ابواب المدرسة ، والذي اتاح لك ان تكبر كما يكبر الصبيان البيض ، والذي اعطاك جميع هذه الاشياء التي لا يملكها ابواك بعد . وها انت لا تريد ان تضحي ولو ببضع دقائق للتفكير فيه . ينبغي ان تشعر بالخجل لذلك . إبق هنا ، امامي ، وردد اقوالي . رددها لجميع التلاميذ : « كان الملك اباً لي . لقد اعطاني جميع الاشياء الحسنة التي املكها . » هيا .. أرنا انك تعرف ان تقول هذا كما ينبغي .

وظل اومي أبكم مذعوراً ، فقد كانت هذه اقوالاً لا يستطيع ان ينطق بها . وقد ظل ينظر ، خافق القلب ، الى الرجل المنتصب خلف الطاولة ، مشدود الفم ، مصفر الوجه الحجري من الغضب ، قاسي الصوت.

ثم صرف الصبي عينيه عنه . وشد على قبضته وهو يفكر بصدمة الليلة الفائتة وذعرها ، تلك الليلة التي سيحمل قلبه جرحها حتى آخر ايامه . وانتهى اخيراً الى القول ، على مضض :

— انا لا اقول ذلك . يا سيدي .

وانحطت يد غرانت على الطاولة . وصاح به :

— بل ستقوله !

— انا لا اقول .

وتحطم شيء ما في ذهن غرانت ، وانتصب المعلم كرفاص ، ثم خرج من الصف بخطى عريضة . وظل اومي وحده مام التلاميذ المشدوهين ، وساقاه ترتجفان ، وقد تقلصت الحياة من وجهه فشعر بالذعر يكتسحه من شيء خطير يتهدده ، وينتظر ان يدخل الى الصف . وانه يكاد يدرك هذا الشيء بغريزته ، غريزة المتوحش الصغير فيخشى ان يفر ويخشى ان يبقى حيث كان .

وعاد الرجل وبيده فضيب من خيزران .

ولم يصرخ اومي كثيراً ، فقد تلقى بعزم ثابت مجموعة الضربات القوية ، بينما كان الآخرون ينظرون اليه بعيونهم كلها ، وبينما كانت روزا تنتحب . ولقد تجمعت في ذراع غرانت مشاعر الغضب المكبوتة كلها ، وكراهية وضعه الذليل ، والخيبات التي تراكمت عليه منذ أشهر . وكان يحاول محاولة عمياء ان يفرض ارادته على الصبي بالضربات ، كأنه وحش ، ما دامت كل محاولة اخرى قد اخفقت ، على ما بدا له . وكان العرق يسيل على وجهه ، ورائحة بشرات الاولاد تتنفس في القاعة .

واخيراً ، قذف بالقضيب في زاوية وهو يشتم ، ودفع الصبي دفعة مفاجئة نحو الباب صائحاً به :

— اخرج من هنا ... وانتم ايضاً ... اخرجوا جميعاً !

وخرج الصبية في غير ما نظام . وان هي الا لحظة حتى اقفر المكان .

*

وظل الصبية ، وقد تجمعوا في الملعب ، ينظرون الى « اومي » يبتعد ، وهو يعرج ، ممسكاً بطرف قميصه الممزق ، وقبضته الصغيرة معقودة على كمه . ولم يقف الا حين ايقن ان احداً لا يراه بعد ، خلف الصخور الباهتة التي تشرف على النهر .

وهناك جلس في فجوة من الظل . وتركت يده المتشنجة طرف قميصه لتمسح انفه الرطب. ولكنه كان ما زال يرفض ان يبكي؛ بالرغم من أن الضربات التي تلقاها كانت توجعه كأنها جروح محرقة .

وكان كلبه الازرق قد انتظره على باب المدرسة . فأمعى امامه ، مرخياً لسانه. وكان اومي يعتبر نفسه أخاً لجميع الحيوانات .وذلك كان طوطم قبيلته لأمه ، كان يحبها جميعاً ، وكانت هي تحبه . ولكنه اليوم لا يفكر بها ، لفرط عذاب الذل الذي يحس به من انه ضرب بغير عدل ولا حق . ومع ذلك ، فلم يكن بد من التغلب على شعور المصيبة هذا . لقد اوجعه الرجل الأبيض ، لانه هو نفسه كان موجعاً . تلك كانت طريقته في قهر الألم : بان يتحمل التضحية . وقد فكر اومي في ذلك بكثير من التنبه . فربما كان الدواء ناجعاً حين نتألم اكثر مما ينبغي .

وشعر الصبي بالحرذون يتلوى في جيبه ، فدس يده ليأخذه ، ولكن الحيوان فرّ واستقر على الصخر المحرق . وحين حاول ان يقبض عليه ، نفذت حسكة صلبه الحادة في ابهامه فجرحته .

وكان رد فعل اومي مثل رد فعل غرانت سرعة وقسوة ووحشية . فقد تناول حجراً وسحق به « اباس » فوق الصخر ، ثم جعل يقطعه ارباً حتى احاله الى نثار . ثم نهض وأخذ يجري وهو ينفجر في البكاء ، تاركاً خلفه كلبه الذي كان يحك الغبار الملوث ببقايا الحرذون الدامية .

وعاد اومي الى المعسكر ، في الجهة المقابلة من مجرى النهر ، فاذا أهله فيه قد ارتحلوا منذ الصباح . ذلك ان الزنوج كانوا يغادرون دائماً المكان الذي يموت فيه احدهم ، ليفلتوا من الارواح الشريرة التي قد تحمل لهم المصائب في الصيد . وكان اومي يؤثر ان يجد المعسكر القديم . فلربما كانت تنتظره هناك روح الرجل الذي مات ليلة امس بلدغة افعى : ابوه الحقيقي الذي كان يحبه اكثر من الآلهة والملوك .